القرن العاشر

1 – سـليمان القـانوني

2 – الإمـام الـشعراني

3 – البركـوي

4 – الرملـي

-

هذا القـرن

يبدأ القرن العاشر الهجري سنة 1496 وينتهـي سـنة 1591، ذلـك في التقـويم الميلادي ، وفيه كان المسلمون على شيء من القوة ، حيث ضمت دولتهم ثلاث دول: واحدة في الغرب ، واثنتان في الشرق .

فأما الدولة الإسلامية التي كانت في الغرب فهي الدولة العثمانية التركية ، تلـك التي تولى زمام الحكم فيها بعد السلطان «محمد الفاتح» أولاده وأحفاده ممن تفـاوتوا بين القوة والضعف ، إلا أن هذه الدولة العثمانية التركية مثلت في النهاية أكبر وأقوى دولة إسلامية في ذلك الوقت ، فقد ضمت في حـدودها الدولـة الـصفوية بفـارس ، وانتزعت العراق من هذه الدولة الصفوية ، وضمت مصر بعد القتال مـع المماليـك ، كما استولت هذه الدولة العثمانية التركية عـلى بـلاد الـصرب والمجـر وبلغاريـا ، إلى جانب استيلائها على الجزائر وغيرها من دول المغرب العربي ، وفي المشرق اسـتولت على اليمن وغيره من دول الخليج في النظام الحديث ، وكان ذلك في عهد «الـسلطان سليمان القانوني» الذي خلفه ابنه «سليم الثاني» الـذي تـم في عهـده الاسـتيلاء عـلى مدينة تونس ، وفي عهده توثقت العلاقات مع الدول الأوروبية التي لم يتم الاستيلاء عليها خاصة فرنسا وإنجلترا .

وأما الدولتان اللتان كانتا في الشرق **فأولاهما** الدولة الصفوية ببلاد فارس التـي اتسعت حتى شملت جميع بـلاد فـارس والعـراق وامتـدت إلى أجـزاء مـن الخلـيج الفارسي ، إلى بحر الخزر . وكانت العلاقات سيئة بين هذه الدولة الصفوية والدولـة العثمانية التركية طوال هذا القرن لسبب رئيـسي غـير الرغبـة في الاسـتيلاء ، هـو أن الدولة الصفوية شيعية ، بينما الدولة العثمانية التركية فقد كانت سنية .

والدولة الثانية في الشرق : فقد كانت الدولة المغولية ببلاد الهند ، تلك التي أنشأها «بابرشاه» من أحفاد «تيمورلنك» .

هذا عن الحالة السياسية لبلاد المسلمين في هذا القرن العاشر ، أما عن الحالة العلمية فلم تكن على مستوى الحالة السياسية ، حيث عم الجهل ، ومعاداة العلوم الفلسفية ، كما أضيف إلى الجهل بالعلوم ومعاداة الفلسفة معاداتهم للعلوم الأدبية ؛ حيث طغت على الألسنة الخاصة بعد أن تم استيلاء الدولة العثمانية التركية على معظم البلاد العربية ، واستخدامها للغة التركية لغة للحياة ، سواء على ألسنة العامة أو في الدواوين الرسمية .

ولعل ما وصلت إليه الحالة العلمية وقتئذ من سوء ، أجمله صاحب كتاب (العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم) حيث سجل : «ولعمري إن ذلك يعد عند الأكثرين من تضييع الأوقات ؛ لأن المعارف عندهم خرافات ، فقد انتهينا إلى زمان يرون فيه الأدب عيبا ، ويعدون الاهتمام بالفنون ذنبا ، وقد سل السيف على من تجلى بالفضائل وتقدم على أقرانه ... فالتبس الدر بالزجاج ، واشتبه العذب بالأجاج ، وضاع طيف خيال ، أو ضيفا على شرف ارتحال ، وضعف أساس العلم وبنيانه ، وتضعضعت أركانه وخمدت ناره ...» .

هذا بالطبع .. إلى جانب تأثير جهلة المتصوفة حتى خضع بعض علماء هذا القرن لأولئك المتصوفة .

كذلك ساءت الحالة الاجتماعية بين المسلمين حتى صارت - كما يقول المؤرخون - أسوأ منها في القرن الماضى. ولذلك أسباب وعلل في مقدمتها : أن الدولة العثمانية التركية التي سيطرت على أغلب البلاد الإسلامية كانت تعامل الرعايا كأنهم عبيد لها . وتنظر إلى ما في أيديهم على أنه ليس من حقهم ، وإنما هو من حق الدولة الذي يئول إلى مواطنيها من الأتراك حتى إن «السلطان سليمان القانوني» اعتبر نفسه هو المالك الحر لجميع أراضي البلاد التابعة للدولة العثمانية التركية .

وليست الدولة . وطبيعي أن يوزعها كإقطاعات على الوجهاء والرؤساء من الأتراك.. وكان كل ذلك على حساب الملاك الحقيقيين غير الأتراك ، بل وصلت الحالة الاجتماعية من السوء : أن السلطان إذا خاطب الرعية لا يوجه الخطاب إليهم، بل يوجهه إلى ولاته قائلا : «بلغوا عبيد بابنا العالي» .

وهذه الدولة العثمانية التركية هي التي ابتدعت تقسيم الأمة إلى طبقتين : «الأشراف» و«العامة» من كل أفراد الشعب، كما أنها هي التي ابتدعت نظام الألقاب مثل : البيك والباشا أو عندما يخاطب هذا أو ذاك فإنما يقال له يا صاحب العزة أو السعادة . وأما بقية أفراد الشعب فمخاطبتهم بـ : «يا رجل أو يا ولد».

وإزاء هذه الأمور .. ساءت الحالة الاجتماعية ووصلت إلى درجة من الانحطاط لم تصلها في أي عصر من عصور الدولة الإسلامية التي قامت على المساواة وتذويب الفوارق ، وأنه لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى .

وفي المقابل .. نجد في أوروبا تقدما وتطورا في النواحي السياسية والاجتماعية وحتى الدينية يفوق بكثير ما كان حادثا في الدولة الإسلامية ، ومن هذه الدول الأوروبية كانت إسبانيا وفرنسا وإنجلترا وبقية الدول الأوروبية الغربية ، ولذلك .. لم يكن غريبا أن تتخلص تماما إسبانيا من الحكم العربي وتسقط غرناطة وغيرها من المدن العربية في قلب إسبانيا ، وتزول حضارة العرب بطرد العرب ، بعد الاستفادة مما صنعوه في إسبانيا .

وهكذا .. صار المسلمون يبحثون عن أمجادهم الغابرة في القرون السابقة ، في علوم الفقه ، ومنهم من وجد ذلك في فقه «شمس الدين الرملي» الذي كان يقال له : (الشافعي الصغير) لبراعته في عرض فقه هذا المجدد ، إلى جانب اعتبار «سليمان القانوني» مجددا آخر لما قام به من إصلاح في إدخال بعض التجديدات الإيجابية في القانون ، التي استحق بسببها لقب القانوني لما استحدثه من إصلاحات قانونية ، كما سنرى عند الحديث عنه كأحد المجددين في هذا القرن .

سليمان القانوني

من أبرز مجددي القرن العاشر الهجري : السلطان سليمان الأول ، أو كما اشتهر في التاريخ بسليمان القانوني . هذا السلطان خلف أباه السلطان سليم الأول عام 1520م في الإمبراطورية العثمانية التركية التي كانت في أوج عظمتها، وواصل فتوحات أبيه في البلقان ، فاستولى على بلجراد في يوغوسلافيا ، وطرد الفرسان من رودس ، وأوقع هزيمة ساحقة بالهنغاريين في معركة موهاك عام 1526م ، وحاصر فيينا بالنمسا عام 1541م ، وكان قد تحالف مع «فرنسيس الأول» ملك فرنسا عام 1536 م ضد النمسا .

جعل الأسطول التركي مصدر رهبة للأوروبيين في البحر المتوسط ، وإن كان قد فشل في الاستيلاء على مالطة ، وشن عدة حروب ضد فارس كان النصر فيها حليفه ، ويذكر أن حكمه اتسم بالعدل والاعتدال بوجه عام ، وكان محبا للثقافة ينفق بسخاء على رجالها .

لقب هذا السلطان بالقانوني ؛ لأنه جدد كثيرا من الأنظمة في الدولة العثمانية ، فأدخل تجديدات في نظام العلماء والمدرسين ، وفي أقسام الشرطة والجيش وغير هذا من جوانب الإصلاحات في الدولة ، وخاصة العمرانية ، فأنشأ مسجدا عظيما كان يعرف باسمه في إستانبول ، وأنشأ إلى جواره عددا من المدارس لتدريس العلوم المختلفة من علوم الأديان إلى الرياضيات ، وكذلك علوم الطب فأنشأ مدرسة للطب لم يكن لها في أوروبا مثيل ، كما يذكر «جودت باشا» في تأريخه .

هذا السلطان العثماني اعتبره بعض العلماء من مجددي القرن العاشر الهجري ، لما قام به من تجديد وإصلاح في القانون .

ومن أهم هذه التجديدات التي أشار إليها المؤرخون : إصلاح القضاء ؛ حيث كان القضاء في الدولة العثمانية التركية المترامية الأطراف لا يجري على مذهب واحد ، بل كان يجري على المذاهب الأربعة في البلد الواحد . فكان في ولاية مصر يجري القضاء على المذاهب الأربعة فكان فيها أربعة قضاة بعدد المذاهب الأربعة ، يحكمون بأحكام مختلفة بين الناس ، فيضرب أمرهم باختلاف تلك الأحكام . وهنا أبطل هذا النظام القانوني بمصر ، وعزل قاضي القضاة : الشافعي والمالكي والحنفي والحنبلي من المصريين ، وولى قضاة أتراك يعملون وفق مذهب واحد يقوم بجانبهم قضاة مصريون يترجمون بينهم وبين أصحاب القضايا من المتنازعين أمام المحاكم .

كذلك .. أدخل بعض التجديدات في نظام المحاكم ، ومنها : كتابة عقد الزواج في بيت القاضي أو نائبه ، وذلك في المدن أو الأرياف ، وإقرار دفع قدر من المال في نظير تدوين وثائق الزواج والطلاق في دفاتر تحفظ في المحاكم لأول مرة بمصر، حتى يرجع إليها عند التقاضي .. وغير ذلك من التجديدات التي كان القصد منها ضبط الأمور التي يكثر فيها منازعات بين الناس ، حتى يرجع إليها في نزاعهم ، لتحري العدل في الحكم بينهم .

إلا أن هذا لم يعجب أنصار الجمود على القديم من علماء مصر ، فعارضوه باسم الدين وثار معهم العامة وأشباه العامة ، بل ثار معهم النساء ممن كن يتمتعن في مصر بما لا يتمتع به التركيات مثل : الخروج إلى الأسواق ودور اللهو وزيارة الأهل والأقارب ، والذهاب إلى الحمامات فمنعهن من هذا كله .. وكان هذا وغيره سببا في اشتراكهن في المعارضة والثورة على هذه القوانين . مع العلماء الثائرين .

ولو أن أولئك العلماء ثاروا على حرمانهم من المناصب العليا في القضاء، أو غضبوا لرفع درجات الترك فوق درجاتهم، لكان لهم الحق في الثورة، ولكنهم للأسف ثاروا على التجديدات في القوانين التي أصدرها السلطان سليمان القانوني، وحكموا بأنها مخالفة للدين، وقالوا للقاضي التركي بمصر: «أبطلتم سنة الرسول - ﷺ -، وصرتم تأخذون على زواج البكر ستين نصفا، وعلى زواج الثيب ثلاثين نصفا، وهذا يخالف الشرع الشريف الذي كان يعقد على خاتم فضة فقط، أو ستة أنصاف، أو حتى على آية من كتاب الله تعالى».

ولم يستطع القاضي أن يرد؛ لأنه لم يكن يعرف الشرع، واكتفى بالقول: «هذا أمر السلطان ولا يمكن أن أخالفه» فقالوا له: «هذا كفر لا تصح الطاعة فيه».. واحتدم الموقف وخرج العلماء غاضبين. واعتصموا بالأزهر الشريف، وأبلغوا علماءه وطلابه تفاصيل ما جرى. فأضربوا عن الدروس، وأغلقوا المساجد والزوايا احتجاجا على هذا الوالي وسلطانه.. وهنا استرضاهم الوالي بأمر من السلطان واستمالهم إليه، وقضى على هذه الفتنة في مهدها ليواصل هذا السلطان تجديداته القانونية التي أضافت جديدا إلى قوانين الإمبراطورية العثمانية التركية المترامية الأطراف.

* * *

الإمام الشعراني

يعتبر الإمام الشعراني من مجددي القرن العاشر الهجري ، حيث توفي عام 972هـ وقبل الحديث عنه ، ينبغى الإشارة إلى أن لكل دين نزعة إلى الظاهر ، تمثلها شرائعه وعباداته وشعائره المحسوسة ، ونزعة أخرى إلى الباطن ، أي إلى المضامين العميقة الروحية التي يحجبها الحس .

هكذا أشار الإمام الشعراني إلى هاتين النزعتين ، واتفق على تواجدهما الفلاسفة من الأجانب والمسلمين .. والتصوف الإسلامي في حقيقة أمره محاولة لتجاوز الشعائر والطقوس المحسوسة لأي دين ، لكي تواجه النفس في أعماقها شحنات روحية تربطها بالجهد الخلاق ، وتدلف بها في بحار أنوار القدس الغامرة لتسبح في ينبوع النور ، وتنعم بالتواجد في جلال الحضرة الإلهية كما يقول الصوفية .

ولقد أثبت مؤرخو التصوف ، وعلماء الدين وفلاسفته ، أن التصوف ظاهرة عالمية ترتبط بكل دين إذا سلك المعتنقون له طريق المجاهدة الروحية . ولكن جمهرة علماء النفس يرون في هؤلاء المتصوفة صنفا من المرضى النفسيين ، وأن الأعراض التى تظهر عليهم ، وحالة التوتر المصاحبة للجذب الصوفي هى بعينها أعراض المرضى النفسيين نفسها .. ويرد على هذا الرأي الدكتور «محمد على أبو ريان» ، أستاذ الفلسفة وتاريخها بكلية الآداب في كتابه (الحركة الصوفية في الإسلام) قائلا : «يجب أن نفطن إلى مغالطة علماء النفس التى تنطوي على هذا الحكم المتسرع ، وهو أنه لا يكفى أن تتشابه الأعراض الخارجية في هاتين الحالتين (حالة التصوف بما فيه من جذب ، وحالة المرض النفسى) حتى نحكم بأنهما حالة واحدة . ذلك أن ثمة فرقا أساسيا بينهما ، وهو أنه بينما يستطيع الصوفي بقدرته الذاتية العودة إلى حال الصحو

أو الحالة الطبيعية بعد الجذب الصوفي ، نجد أن المريض النفسي يعجز عن شفاء نفسه بنفسه، وقد يستحيل عليه أن يعود إلى الحالة الطبيعية العادية بإرادته الذاتية ».

ومن هذا .. نرى أن التصوف حقيقة اعترف بها العلماء والمؤرخون حتى وإن اختلفوا في بعض أشكاله وتفاصيله ، ونتائجه الخاصة بالفرد ، أو نتائجه العامة بالنسبة للمجتمع .

وإذا كان التصوف حقيقة لها وجودها ما وجدت الأديان ، فإن هناك من اهتم برصدها وتحليلها فكريا ، وتقصى أخبارها وتسجيلها تاريخيا .. ومن الطائفة الثانية الإمام عبد الوهاب الشعراني ، صاحب كتاب (الطبقات الكبرى) التي عنيت بالتاريخ لرجال التصوف بشكل يجعل أي باحث في هذا الجانب لا غنى له عن الرجوع إلى هذه الطبقات ، حتى يمكنه التعرف على الكثيرين من المتصوفة وأحوالهم.

ولم يكن كتاب (الطبقات الكبرى) الذي اشتهر به الإمام الشعراني هو الكتاب الوحيد الذي تركه ، بل إن لهذا الإمام الجليل عددا من الكتب التي أثرت المكتبة الإسلامية ، حيث يذكر «على باشا مبارك» في الخطط التوفيقية أنه رأى منها سبعين كتابا ، منها على سبيل المثال لا الحصر كتب : (الأجوبة المرضية عن أئمة الفقهاء الصوفية) ، و(بهجة النفوس والأسماع والأحداق فيما تميز به القوم من الآداب والأخلاق) ، و(درر الغواص من فتاوى الشيخ على الخواص) ، و(القواعد الكشفية في الصفات الإلهية)، و(الكبريت الأحمر في علوم الشيخ الأكبر)، و(المنن الكبرى)، و(لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية) ، و (مدارك السالكين إلى رسوم طريق العارفين)، و(مشارف الأنوار) ، و(المنح السنية) ، و(اليواقيت والجواهر في عقائد الأكابر).

وغيرها من كتب قال عنها صاحبها الإمام الشعراني بأن الذي دعاه إلى كتابتها هي الحالة المتردية التي كان عليها التصوف والصوفية في زمانه ، بل وينعي ويعتب

على من توفي من أكابر المشايخ أنهم لم يهتموا بتسجيل فضل التصوف قائلا : «فلما ذهبوا زالت حرمة الطريق وأهلها ، وصار الناس يسخرون بأحدهم ، ويقولون لبعضهم : ما دريتم ما جرى ؟ فلان آخر عمل شيخا . كأنهم لا يسلمون له ما يدعيه لما هو عليه من محبة الدنيا وشهواتها ، والتلذذ بمطامعها وملابسها ومناكحها والسعي على تحصليها ..».

ويحذر الإمام الشعراني من قراءة كتب العارفين ، إلا لعالم أو من سلك طريق القوم ، وأما من لم يكن كذلك فلا ينبغي له قراءة شيء منها ، خوفا عليه من إدخال الشبه التي لا يكاد يفطن أن يخرج منها . ومما يقع فيه كثير من الناس قولهم : «يا من يرانا ولا نراه» ، أو «ما في الوجود إلا الله» ونحو ذلك مما لا يجوز التلفظ به ، لما يورثه من الغموض والإبهام عند العوام خاصة ، وكذلك لا يجوز إجماعا - عند أهل السنة - إرادة ذاته سبحانه وتعالى بقول بعضهم شعرا :

أنا من أهوى ، ومن أهوى أنا　　نحن روحان حللنا بدنا

أو قولهم :

تمازجت الحقائق بالمعاني　　فصرنا واحدا روحا ومعنى

ولهذا .. فقد دافع الإمام الشعراني عن «محيي الدين بن عربي» وأوضح ما يريد أو ما يهدف إليه من أقواله ، مثل قول ابن عربي : «حدثني ربي عن قلبي أو حدثني ربي عن نفسه بارتفاع الوسائط» قائلا : ليس مراد أو هدف ابن عربي أن الله سبحانه وتعالى كلمه كما كلم الأنبياء . وإنما مراده أن يقول : إن الله سبحانه وتعالى يلهمه على لسان ملك الإلهام بتعريف بعض الأحوال .

ويذكر الدكتور «عبد المنعم الحفني» في موسوعته الصوفية أن كتاب (المنن الكبرى للشعراني) من أفضل وأشرف كتب الأخلاق ، فقد وضح فيه الآداب

الإسلامية، وأن كتابه (الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية) هو طرح لمعتقداته، مما يمكن أن يكون هديا ونبراسا ومثلا حيا للصوفي في الأخلاق ، باعتبار أن الرسول - ﷺ - هو المثل الأعلى لكل مسلم ، حيث يقول الشعراني في مقدمة هذا الكتاب : «هذا كتاب نفيس لم يسبقني أحد إلى وضع مثله ، الباعث لي على تأليفه : ما رأيته من تنافس الإخوان على ما ينقصهم عن دنياهم . ولم أر أحدا يفتش على ما ينقصه من أمور دينه» . وفي سبيل الغاية نفسها ألف كتاب (الأنوار القدسية) ، وخصصه لتوضيح المناهج الصوفية ، والصلات التي تربط الشيخ والمريد بالآداب ككل .

وقد فضح الإمام الشعراني الدجالين والمدعين والمشعوذين من أولئك الذين يدعون انتسابهم للصوفية في كتابه الأشهر (الطبقات الكبرى) . ورأى فيهم البلاء والنكبة على الإسلام حين تعقب شيوخ عهده - مظهرا جهلهم وسوء أدبهم . والمرء يعجب لإدراج الشعراني لهؤلاء الذين انتقدهم مع تراجم السلف الصالح ، وسرعان ما يزول العجب حين يكتشف أن رغبة الشعراني في ذلك هي إتاحة المقارنة بين هؤلاء المدعين وأولئك من السلف الصالح .

والغريب أن الإمام عبد الوهاب الشعراني من أصل مغربي ، فعائلته- كما تذكر المصادر- من تلمسان ، وأن الذي جعل أجداده يغادرون تلمسان إلى مصر نبوءة من الصوفي الأكبر «أبو مدين التلمساني» ، فغادروا تلمسان إلى صعيد مصر . وغادروا الصعيد ليستقروا بالمنوفية ، وبالتحديد في قرية «ساقية أبو شعرة» التي استوطنوها ، وولد فيها حفيدهم الإمام عبد الوهاب الشعراني صاحب الطبقات الكبرى عام 898 هـ . وبعد أن توفي والداه وتركاه يتيما ليس له إلا الله نصيرا- كما يقول- سافر إلى القاهرة عام 910 هـ ليقيم فيها بمسجد الغمري مدة سبعة عشرة عاما يتعلم ويعلم ، يتهجد ويتعبد . واتصل بصفوة العلماء وقتئذ ، وفي مقدمتهم «القاضي زكريا الأنصاري» ، والمؤرخ «جلال الدين السيوطي» .

أما كيف اندمج الشعراني المريد الشاب القروي ، الذي يعد من وجوه عديدة شخصية نموذجية فريدة في الوسط المدني بالقاهرة . فهذا ما فصله المستشرق الفرنسي الكبير «ريجيس بلاشير» في حديثه عنه في دراسته عن تأسيس القاهرة ، ومن جملة ما قاله عن الشعراني : «ولا ريب في أن غلبة الطابع الريفي على الأحياء المتطرفة من المدينة ، وتوثق العلاقات بين المدينة والريف ، تدعمها شبكة من الروابط الإنسانية والدينية ذات صبغة شاذلية (نسبة إلى الإمام الشاذلي) .. لا ريب أن هذا كله قد أتاح للشعراني التكيف والاندماج في القاهرة ».

ثم يحدثنا هذا المستشرق الفرنسي بعد ذلك عن الشعراني وشيوخه ، وأهمهم «الشيخ على الخواص» ، وأستاذه «إبراهيم المتبولي» ، وكلا الرجلين من أتباع الطريقة الشاذلية المعتدلة ، التي تؤمن بضرورة العمل اليدوي كوسيلة لخلق التوازن ، مع التأمل والتفكير . كما تدعو أنصارها من ممارسي الصوفية إلى مزاولة حرفة تضمن لهم مكانا في المجتمع وقتئذ ، وتقيهم من أن يصبحوا عالة عليه.

وهكذا كان للشيخ على الخواص دكان صغير يبيع فيه الزيت ، كما كان يكسب قوته من نسج الخوص . واشتغل أستاذه إبراهيم المتبولي زمنا ببيع الحمص . أما تلميذه عبد الوهاب الشعراني نفسه فقد اشتغل بالحياكة . وهكذا - كما يقرر هذا المستشرق - نلاحظ لدى الجميع احتراما للعمل الذي اختارته لهم مشيئة الله ، وللنظام الاجتماعي الذي ارتضوه لأنفسهم .. انتظارا لنظام آخر يكون من نصيبهم في الآخرة .. «وهو ما يجعل لاتباع الصوفية معنى إيجابيا» .

وهكذا .. كان الإمام الشعراني عالما محققا له جهوده الصادقة في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى . حتى توفي عام 972 هـ .

* * *

البركـــوي

«زين الدين محمد بن بير عـلي محيـي الـدين» المـشهور في الكتابـات الإسـلامية «بالبركوي» من مجددي القرن العاشر الهجري حيـث ولـد عـام 929هـ، وتـوفي في مسقط رأسه «بركي» عام 981هـ، وقـد كتـب عنـه المحـدثون إلى جانـب القـدماء فذكروا أنه تربى في بيئة تجل العلم وتقدس تعاليم الإسلام.

وكان أبوه رجلا عالما من أصحاب الزوايا، فنـشأ في كنـف أبيـه يطلـب العلـم والمعارف، ويسعى في التحصيل والاستفادة من علماء عصره، وكان ملازما لـ «المولى عبد الرحمن» أحد قضاة العسكر في عهد الـسلطان «سـليمان القـانوني»، ثـم اتـصل بخدمة الزاهد المرشد «عبد الله القرماني البيراني»، فخدمه مدة من الزمن، واسـتفرغ مجهوده في العبادة والزهد، ثم أمره شيخه المذكور بمدارسة العلوم، والتصدي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد حصل بينه وبين «المـولى عطـاء الله» محبـة زائـدة، ومودة شديدة، فأقبل عليه بحسن الالتفاف، وبنى مدرسة في قصبة بركـي وفـوض تدريسها إليه، وجعل له راتبا كل يوم ستين درهما، فكان يـدرس فيهـا تـارة ويعـظ أخرى، فقصده الناس من كل فج، واجتمع عليه الطلبة مـن جميـع الـبلاد، فـانتفع الناس بما كان يلقيه عليهم من دروس الوعظ، وفي الوقت نفسه انتفع الطلبة بما كان يلقيه عليهم من دروس العلم.

واشتغل أيضا بالتأليف، فشرح مختصر البيضاوي في النحو، وألف متنا في علم الفرائض، وله في الحديث وتفسير القرآن والفقه تعاليق ورسائل، اخترمته المنية قبل إتمامها، وهي في هذا النوع من التأليف الذي شغف العلماء به في هـذا القـرن، وهـو

التأليف الذي لا يتجاوز اختصار كتاب من الكتب المبسوطة ، أو شرح مختصر من المختصرات التي عرفت باسم المتون ، فهو في هذا مثل «شمس الدين الرملي» وغيره من علماء هذا القرن ، فلم يكن لهم إلا معرفة ضعيفة بعلم الفقه وما إليه من العلوم ، التي عكفوا عليها ورضوا بها ، وجمدوا على الأخذ بالتقليد فيها ، فلم يدروا شيئا من حال العالم في هذا القرن ، ولم يعرفوا ما يلزم المسلمين للنهوض بهم بين الأمم ، حتى حلت الكارثة بهم ، وضاعت بلادهم بغفلة علمائهم عما يلزم لرفع شأنهم .

ثم كان من «البركوي» في آخر عمره أن رحل إلى - إسطنبول - ودخل مجلس الوزير «محمد باشا» ، وكلمه في قمع الظلم ودفع المظالم عن البلاد ، وكان شديدا في وعظه له ، لأنه لم يكن يخشى أحدا فيما أخذ به نفسه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأخذ يقوم بالوعظ في استانبول ، ويعمل على رفع المظالم عن الرعية ، ولكن وعظه كان يذهب كأنه صرخة في واد ، فلم يتأثر به أحد من عامة الناس وخاصتهم ، لأن الناس سئموا هذا الأسلوب القديم في الوعظ ، وكانوا في حاجة إلى أسلوب جديد لا يكتفي بمحاربة الظلم ، لأنه موقف سلبي لا يؤدي إلى الإصلاح المطلوب للمسلمين ، وإنما يؤدي إليه محاربة جمود العلماء ، وفتح باب الاجتهاد في العلوم ، وكان البركوي من العلماء الجامدين ، ولا يذكر في تاريخه إلا أنه كان لا يرى الاستئجار على تلاوة القرآن وتعليم العلوم .

ويذكر الشيخ «عبد المتعال الصعيدي» عنه بأنه قد سبق أن «السيد رشيد رضا» وآخرين هم الذين عدوه من المجددين ، وأنه مضى في هذا على مذهبه في إيثار رجال مدرسة ابن تيمية بلقب التجديد ، ولكن البركوي لا يشبه رجال هذه المدرسة ، إلا فيما كان من شدته في إنكار المنكرات ، وأنه لم يكن يخشى في ذلك أحدا من ذوي السلطان في عصره .

* * *

الرملـــي

شمس الدين الرملي .. هو محمد بن أحمد بن حمزة الـرملي أحـد مجـددي القـرن العاشر الهجري . بل كان في مقدمة المجددين في الإسـلام عـلى رأس المائـة العـاشرة الهجرية .

وقبل أن نطوف معا في سيرته كما سـجلتها بعـض الكتابـات ، لنـا أن نتوقـف لحظات عند صورة العالم في القرن العاشر ، متأملين هذا القرن الذي امتـد مـن سـنة 1496 إلى سنة 1591م . حيث كانت الدولة العثمانية التركية أقوى دولـة إسـلامية في العالم ، وكان على رأسها السلطان «بايزيد الثاني»، ابن السلطان «محمد الفاتح» فـاتح القسطنطينية وكان بايزيد هذا ملكا محبا للسلام . فوقفت هذه الدولة في عهـده عنـد الحدود التى فتحها أبـوه . وقـد خـرج عليـه ابنـه سـليم الأول ، فانـضم إلى جـيش الإنكشارية ، فترك له الحكم سنة 1512م ، فقام السلطان سليم بالحكم وابتدأه بقتال الطامعين فيه من إخوتـه وأبنـائهم إلى أن قـضى علـيهم ، ثـم توجـه إلى قتـال الـشاه إسماعيل مؤسس الدولة الصفوية بفارس ، وانتصر عليه ، واستولى على قاعدة ملكـه تبريز ، وانتزع منه معظم ملكه . ثم توجه إلى قتال المماليك بمصر فحـاربهم وأسـقط دولتهم وانتزع لنفسه الخلافة الصورية من آخر خلفاء بني العباس بمصر .

وبعد أن توفي السلطان سليم الأول خلفه ابنـه الـسلطان سـليمان القـانوني وفي عهده وصلت الدولة إلى أوج عظمتها ، حيث استولت عـلى بـلاد الـصرب والمجـر وغيرها من بلاد أوروبا الشرقية ، ووصلت فتوحاته إلى النمـسا في أوروبـا الغربيـة ، ثم توجه إلى المغرب العربي ، واليمن في المـشرق العـربي ، وواكـب هـذه الفتوحـات إصلاحات دينية ومدنية ، إلى أن توفي وخلفه ابنه سليم الثاني ، الـذي لم يكـن كأبيـه

السلطان سليمان القانوني من ناحية الصفات التى تمكنه من التوسع والإدارة في هـذه المملكة العظيمة ، ولذلك .. لم يكن هناك من الإنجـازات التـى تنـسب إليـه سـوى استيلائه على مدينة تونس ، وفتح الباب أمـام الـدول الأوروبيـة ، خاصـة فرنـسا . لدخول رعاياها كبمعوثين ، مما كان له كبير الأثر بعـد ذلـك لازديـاد نفـوذهم فيهـا وتوفي ليخلفه ابنه «مراد الثالث» ، الذي بدأ عهده بقتل إخوتـه حتـى لا ينـازعوه في الملـك ، وفي عهـد هـذا الـسلطان زادت الامتيـازات الأجنبيـة في داخـل أراضـيه ، وخاصة فرنسا وإنجلترا وإيطاليا . كما وقعت في عهده بعض الحروب ، خاصـة مـع الدولة الصفوية بفارس ، وانفصلت عنه بعض المناطق الأوروبية مثـل «ترنـسلفانيا» التي أعلنت العصيان عليه بتحريض ومساعدة من النمسا وألمانيا .

وطبيعي ، والأمـر كـذلك.. أن ينقـسم المـسلمون في هـذا الوقـت إلى دولتـين شرقيتين غير الدولة العثمانية التركية . **الأولى** هى الدولة الصفوية بفـارس ، **والثانيـة** هي الدولة المغولية ببلاد الهند ، وأن تضعف بلاد المغرب العـربي حتـى تكـاد بـلاده تسقط في أيدي الإسبانيين والبرتغاليين .

لكن على الرغم من كل شيء ، فإن المسلمين في هذا القرن كانوا عـلى شيء مـن القوة ؛ إذ كانت الدولة العثمانية التركية مرهوبة الجانب بين الأمم الأوروبية ، يقابـل هذه القوة السياسية ضعف في الناحية العلمية ، حيـث تفـشى الجهـل ، وأضـافوا في ذلك عداوتهم للعلوم الأدبية إلى عداوتهم للعلوم الفلـسفية ، وطغـت العاميـة عـلى الفصحى بعد استيلاء الدولة العثمانية على معظم بلاد العرب ، وجعلها اللغة التركية هي اللغة الرسمية في الدواوين الحكومية ، وبهذا ازداد العلم هوانـا أمـام غيبـة لغـة البلاد ، وأمام استشراء نفوذ مدعي التصوف وما يتسمون به - وقتئـذ - مـن جهـل فاضح .

وفي هذا المناخ ، ظهر «شمس الدين الرملي» ليكون أحد المجددين في هذا القرن العاشر الهجري ، حيث ولد عام 919 هجرية بالقاهرة ، وكـان مختلفـا عـن أترابـه ،

وإلا فما معنى أن يذكر الإمام الشعراني في طبقاته الوسطى بأنه صحب هذا المجدد (أي شمس الدين الرملي) منذ كان يحمله على كتفه طفلا صغيرا إلى أن كبر ، وأنه ما رأى طفلا واعيا بدينه ، عارفا عما يغضب ربه ، منصرفا عن اللهو واللعب مثل هذا الطفل ، الذي نشأ على الدين ، والتقوى ، والصيانة ، وحفظ الجوارح ، وطهارة العرض ، ونقاء السريرة . وقد رباه والده فأحسن تربيته .

ويذكر الشعراني : أن هذا الوالد كان يعمل بالتدريس، وعلى يديه تلقى هو أي: الشعراني- العلم - فقد لقن ابنه - شمس الدين - خلاصة علمه وخبرته في : الفقه، والتفسير ، والنحو ، والصرف ، والمعاني ، والبيان ، والتاريخ ، إلى درجة أن الابن استغنى بالوالد وعلمه عن التردد إلى غيره من علماء ذلك العصر الذي امتهن فيه العلم .. وفي ذلك يذكر الإمام الشعراني نقلا عن هذا الوالد - قوله : «تركت محمدا بحمد الله تعالى لا يحتاج إلى أحد من علماء عصره إلا في النادر».

وطبيعي.. وقد كان والده يعمل بمهنة التدريس، فإنه قد احتل المكان الذي كان يشغله هذا الوالد ، ليحضر درسه أكثر تلاميذ والده ، حتى ولو كانوا أكبر سنا منه . وإذا سئل أحد هؤلاء التلاميذ عن السبب الذي يدعوه لملازمة هذا العالم الشاب كما كانوا من قبل يلازمون والده ، رد قائلا : لأني أستفيد منه ما لم يكن لي به علم .

وهكذا .. أصبح مألوفا أن يقصد هذا المجدد طلاب العلم من كل الأقطار العربية والإسلامية . حتى يذيع صيته ، وتعم شهرته ، ويستحق بين أهل زمانه أن يلقب بالشافعي الصغير ، لأنه كان مرجع أهل مصر وغيرها من الأمم في تحرير الفتاوى الفقهية ، وكان مع هذا يتولى منصب إفتاء الشافعية بمصر .

ومن الآثار العلمية لهذا المجدد الصالح : أنه كان من أوائل الذين ابتدعوا أسلوب الحواشي ، وله في ذلك العديد من الحواشي المعتمدة مع السابقين .

والحق أن هذه الطريقة – طريقة الحواشي – على الرغم من مآخذ النقاد عليها ، فإنها كانت وسيلة لتعلق الناس بهذا النوع من التأليف ، إلى درجة أنهم أهملوا النظر في كل كتاب ليس عليه شرح وحاشية وتقرير ، وكان لهذا أثره في ذيوع وانتشار علم هذا المجدد في جميع الأقطار العربية والإسلامية ، حتى صارت كتبه في مقدمة مراجع المذهب الشافعي .

ولهذا وغيره .. كان شمس الدين الرملي يعد مجددا في القرن العاشر ، إذ إنه صار في مقدمة العلماء الذين ينتفع بعلمهم ، وأن كتبه كانت في مقدمة الكتب التي يحتاج إليها الباحث في العلوم الشرعية .

وهكذا .. ظل هذا العالم الصالح المنصرف إلى علمه على عهده بالعلم : بحثا ودرسا وإفتاء .. إلى أن توفي عام 1004هـ ليدفن بمدافن القاهرة .

* * *